

نحـــو طلائع إسلامية واعيــة

دور المسلم

فى الثلث الأخير من القرن العشرين

مالك بن نبى





دور المسلم
في الثلث الأخير من القرن العشرين

مالك بن نبي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

لا يمكن فهم هذه المحاضرة « الهامة » إلا بربطها بفكر مالك بن نبي كله وعلى الأخص بفكرته عن التاريخ أو فلسفة التاريخ عنده . إذ هي تطبيق لفكرته تلك على الواقع المعاصر ـــ الحاضر ـــ في محاولة للتفسير ، وعلى المستقبل في محاولة للتوقع . وذلك بعد أن سبق له في دراسات أخرى أن استخدمها في دراسة الماضي وحسب ومن هنا أحد جوانب الأهمية لهذه المحاضرة .

وإذا كان لنا أن نبرز شيئاً فهو التأكيد على أن دور المسلم لن يتحقق **إلا بشروط**. وهو لن يأتي حتى ولو سقطت الحضارة القائمة مالم تتحقق هذه الشروط وتستغل الفرصة التاريخية السانحة الآن ، في العمل على (**تجاوز**) التناقض القائم على محور موسكو ـــ واشنطن حيث تتعاظم الإمكانات الحضارية وتختفي المبررات ، وعلى محور طانجة ـــ جاكرتا حيث تتنامى المبررات وتنعدم الحضارية . وهذا التجاوز لا يتم إلا من خلال «**تركيب مبدع**» لتحقيق فكرة «**الأمة الوسط**» .

ولعل أخطر شرط لهذا التجاوز ـــ وهو ما لا ينبغي أن يمل من تأكيده ـــ هو أن يرتفع المسلم أولا إلى مستوى الحضارة فيصبح « **معاصراً** » حقا .

المختار الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خير المرسلين .

أيها السادة الكرام ، الأبناء والطلبة الأعزاء .

إننى لا أستطيع أن أقدر هذه اللحظة حق قدرها فى سجل حياتى مع أن اللحظات واللقاءات تكرر .. اننى أشعر بمزيد من السرور والفرح إذ أتحدث مع هذه الطائفة من الشباب المسلم فى هذه الأصقاع من البلاد الشقيقة ، سورية العزيزة ، وفى معقل من معاقل الإسلام ، المعقل العريق دمشق . ويجب على أن أتوجه بالشكر لإخواننا الحقوقيين الذين أفسحوا لنا المجال وقدموا لنا هذا المكان لنعرض ما استطعنا دور المسلم فى الثلث الأخير من القرن العشرين فى رأينا .

لو حاولنا تحديد دور المسلم عامة ما كان لنا أن نختار سوى ما اختاره الله له دوراً فى التاريخ .. يقول عز وجل : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** » (البقرة ١٤٣) . هكذا يحدد الله دور المسلم بعامة وليس لنا أن نختار له دوراً أشرف وأفضل منه ، وإنما نلفت النظر إلى خطورة هذا الدور وإلى مقتضياته التى هى من اختصاص الفقهاء ومن اختصاص الحقوقيين لأنهم يعرفون شروط تزكية الشهادة والشاهد من الناحية العقلية ومن الناحية الأخلاقية معاً .

لكن لماذا أفردنا وتعمدنا إفراد فترة معينة من هذا القرن ؟

أولا : لطبيعة القرن العشرين التى يتميّز بها عن القرون الأخرى كلها لأنه القرن الذى تحققت فيه تغيّرات جذرية بدت وكأنها ترسم للإنسانية نقطة اللارجوع على محور الزمن ، فهو القرن الذى هبت

فيه أكبر عواصف التاريخ على مصير الإنسانية .

ثانيا : لأنه القرن الذى سجل الأحداث الكبرى سواء فى مجال العلم ، أو — كما سنرى — فى المجال النفسى ، أو فى المجال الأخلاقى والدينى . ففى كل هذه المجالات هبت عواصف كبرى يبدو أنها غيرت معالم الطريق ، وعلى أية حال فهى قد غيرت ملامح الزمن والمجتمعات الإنسانية .

هذه التغيرات تحققت من خلال أحداث كبرى ، خاصة الحربين العالميتين اللتين هزتا العالم مرتين فى ظرف أربعين سنة وشملتا للمرة الأولى فى التاريخ سائر أنحائه . ولوقع هذه الأحداث نتائج لا مناص منها ، وبعضها دخل سجل التاريخ وتسجل فى حافظة الإنسانية وفى كتبها ، وبعضها دخل عالم النفوس ، سواء أستطعنا قراءته أو لم نستطع ، وبعضها لا زال توقعات فى ضمير الغيب نرى من خلالها أحداثاً كبرى مطلة على زماننا .

فهذه الأسباب تجعلنا نرى فى هذا الثلث الأخير من القرن العشرين كأنه النهر قرب شاطىء البحر وقد بلغ المصب بعد أن تجمعت فيه جميع روافده من المياه التى إنحدرت من أعالى الجبال فى أقصى داخل البلاد . **فالثلث الأخير يبدو هكذا تلك الفترة من التاريخ التى تتجمع فيها كل روافد التاريخ** ، بكل نتائجها النفسية والاجتماعية والسياسية والعلمية وكل التغيرات المترتبة على هذه النتائج . وعليه فإن هذه المسوغات تكفى لتبرير أختيارنا له كحقبة زمنية **أستثنائية فى** التاريخ بحيث يكون دور المسلم فيها شيئاً أستثنائياً أيضاً ، يجب إدراجه بطريقة خاصة فى الدور العام الذى حدده له القرآن الكريم كشاهد ،

وذلك كأمر يجب أن يدخل فى اعتبارنا ويجب أن نقدره بقدر ما يمكن من الواقعية حتى نقدم لشبابنا الصورة **الموضوعية** التى يرى من خلالها دوره هو ودور أخوانه الآخرين فيه ، لأن رسالة الجيل الناشىء ستحقق على أية حال أما سلبية أو إيجابية فيه . **فهو ثلث تحقق رسالته .**

ولكى نتبين طبيعة هذا الدور الذى يجب على الشاب المسلم أن يتصدى — منذ الآن — للإطلاع به فى هذه الحقبة المواجهة له ، المنفتحة أمامه ، يجب أن نراجع بعض السمات التى يتميز بها هذا الثالث الأخير فى العالم المتحضر ، لأن مركز الفكر العالمى اليوم يوجد على محور سبق أن سميناه — فى كتاب سبق نشره — محور (واشنطن — موسكو) ، محور القوة محور العلم محور الحضارة .

يجب إذا أن نلتفت إلى هذا المحور ، مركز الثقل الذى تطبع عليه الأحداث كل أبعادها العالمية ونتساءل ما الذى طرأ على هذا المحور ؟ ماذا حدث فيه خلال القرن العشرين ؟ ما هى التسجيلات الخاصة — وهذا ما يهمنا — فى العالم الثقافى وفى العالم النفسى عليه ؟

إن الأجيال فى هذا المجتمع المتحضّر عاشت على رصيد ثقافى ورثته من الأجيال السابقة . أعنى أنها عاشت على رصيد المبررات التى دفعت عجلة التاريخ فى القرون الماضية وخصوصاً فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين . والذى يبدو — خاصة إذا رجعنا إلى فترة ما بعد الحربين العالميتين — إن هذا الرصيد من المبررات الضرورية لتحمل أعباء الحياة بدأ **ينفد** وبدأت الشعوب التى تعيش على محور (**واشنطن — موسكو**) ، الشعوب المتحضرة ، بدأت تشعر جميعها

بنفاد رصيدها الثقافى ، رصيد مبررات حياتها التقليدية الموروثة عن أجدادها ، وبدأت فعلا تجرى **عمليات تعويض** فى شتى الميادين ، حتى فى ميدان الأدب حيث نرى لونا جديداً يظهر تحت أسم الوجودية .

وإذا كان من حق أصحاب هذا اللون من الأدب أن يحللوا القضية من الناحية الأدبية ، كما يفعل كير كجارد وهايدجر وسارتر فى كل من الدانمرك أو المانيا أو فرنسا فإن من حقنا نحن أن نحلله من ناحية أخرى . فنرى فيه **رد فعل أدبى على شعور غامض لفقدان المبررات فى المجال النفسى** .

والسؤال الآن كيف فقدت هذه المبررات التى تحركت ودارت عليها عجلة التاريخ طيلة القرون الماضية فى أوربا ؟

لنتصور كيف كان ينشأ الطفل فى زمان (كيبلنج) مثلا أو فى زمان (ارنست رنان) مثلا ؟ **كيف كان ينشأ فى بيته ؟ ثم كيف يتعلم فى مدرسته ؟ ثم كيف كان يتوجه فى عمله بعد التخرج من** الجامعة أو عندما يبلغ أشده ويتوجه إلى الحياة العملية كجندى فى تلك الجيوش التى تفتح البلدان التى تسمى المستعمرات .

كان الطفل فى ذلك الوقت ينشأ وحوله جو من الأفكار منبتها الأستعمار ، أى المناخ الأستعمارى الذى تكون فى أوربا وفى أمريكا على حد سواء فى الاتحاد السوفيتى قبل الثورة أيضاً . هذا المناخ الأستعمارى هو الذى كان ينشأ فيه الطفل منذ ولادته ، بحيث لا يبدو غريباً فى هذا المناخ الذى كان يسود العالم المتحضر أن يقوم من فرنسا كاتب قصصى كبير فى أواخر القرن الماضى هو (جلفرن)

ليكتب عن ملحمة لا تمت بصلة إلى بطولة الفرنسيين أو بطولة الجيش الفرنسى هى ملحمة عنوانها (ميشال ستروجوف) بل تتصل بفتح روسيا للبلاد الإسلامية فى بخارى . وكانت قصة غريبة فعلا ، إن دلت على شيء فإنما تدل على سيادة المناخ الأستعمارى شرق البلاد وغربها ، ذلك المناخ الذى سيتم فيه إبرام الميثاق الأستعمارى فى مؤتمر برلين ١٨٨١ ، حيث كان الضمير الأوربى ، الضمير المتحضّر يعيش هذه الملحمة المتفقة مع روح ذلك الميثاق ، بحيث لا نستغرب استعمال تسمية الأكتشافات الأستعمارية والفتوحات الأستعمارية . لكن الشيء الذى يهمنا نحن من جانب التحليل اليوم — كى نعود إلى موضوعنا — هو كيف فقدت المبررات ؟

كان الطفل يشبع جانب تعطشه للأشياء الغريبة والقصص النادرة وقصص البطولات فى جو الأستعمار وفى ملحمة الفكر الأستعمارية نفسها بحيث لا نستغرب أن نرى رجلاً (كستانلى) فى أواخر القرن الماضى ، نشأ فى هذا الجو وتكونت عنده فكرة الأكتشافات وفكرة الفتوحات ، نراه يغادر وطنه إلى أفريقيا الوسطى فيحتل قطاعاً كبيراً منها . لقد كان يرى ما يراه على الخريطة قطعة بيضاء فراودته الفكرة أن يلونها بلون ما ، وكان اللون الأحمر على الخرائط المستعملة فى أواخر القرن الماضى مخصصاً لتلوين المستعمرات الفرنسية واللون الأخضر لتلوين المستعمرات الانجليزية ، واللون البنى لتلوين المستعمرات البرتغالية ، واللون الأصفر لتلوين المستعمرات الهولندية الخ ... فأراد ستانلى أن يلون قطعة ما من أفريقيا بلون يخول هذه القطعة أن تكون هدية لأوربا كمستعمرة ، وقد أهداها فعلا لما تم وضع اليد عليها — على الكونغو — إلى تاج بلجيكا وكأنها ملك

أجداده أو قطعة من تركتهم يقدمها إلى ملك أو ملكة بروكسل .

أما إذا كان هذا الأوربى جنديا فإن نشأته فى هذا الجو تصور له أن المجال لأداء واجباته الوطنية وواجباته العسكرية هو قطاع من قطاعات أفريقيا وآسيا .

هكذا كانت الأمور تسير وهكذا كانت تتفتح نفوس الأطفال فى أوربا . يضاف إلى ذلك تدخل بعض الأشياء ذات الجانب الخفى الجانب الذى يتصل بما نسميه الصراع الفكرى الأشياء التى تصور لهذا الطفل الناشىء حتى قبل دخوله إلى المدرسة الأبتدائية أو قبل خروجه منها — فى مجلات متخصصة للأطفال — تصور له آيات البطولة فى أفريقيا على حساب أولئك البرابرة من السود أو من الصفر . بحيث يعتقد عندما ينزل بلاداً مثل شنكهاى فى أواخر القرن الماضى ، أنه هو رب الصين . فيضع لافتة على باب الحديقة — رأيناها نحن عندما زرنا الصين ، لأن الحكومة الصينية تركتها كما هى بعد خروج الأستعمار منها — كتب عليها « لا يدخل هذه الحديقة لا الكلاب ولا الصينيون » ، بعض الكلاب طبعاً . لقد كان ترتيب الكلمتين الكلاب أولاً والصينيين ثانياً .

هذا هو المناخ الذى كانت تتكون فيه نفوس الأطفال ونفوس الشبان ونفوس الرجال ، وهذا هو المناخ الذى كانت تنطلق فيه الطاقات — طاقات لا نحتقرها فعلا — كتلك الطاقة الجبارة التى نتصورها فى شخص مثل الأب (دوفوكو) الذى تطوع أن يذهب فى سنة ١٩٠٨ على الأقدام من مدينة فى جنوب الجزائر لفتح القطاع الصحراوى حتى حدود ما يسمى بالسودان الغربى . فهذه الأشياء

كانت تغمر الحياة الأوروبية بفيض من المبررات . وربما كانت هناك منابع أخرى لهذه المبررات فقدت أو جف نبعها بعد الحرب العالمية الأولى والثانية ، بسبب تطورات تتصل بما حدث مثلا بشأن الروابط الخفية أو الظاهرة بين مجالى العلم والنفس .

فبقدر ما كانت تتحقق أكتشافات علمية كبرى فى أوروبة بقدر ما كانت تترك صداها على المجال النفسى ، وأثرها الكبير فى التطور الروحى ، بحيث بدأت تفتر بعض المبررات الروحية لأسباب لا نطيل عندها الوقوف حتى لا نتعدى بعض الحدود من اللياقة .

هكذا فقدت المبررات الروحية وفقدت حتى المبررات التى نسميها المبررات الأجتماعية ، المبررات الموضوعية .. وإذا أردنا أن نعرف المبررات الموضوعية نذكر على سبيل المثال ما كان لهم من ثقة بكلمتى العلم والحضارة ، فقد كانت هذه الثقة هى منطلق الأفكار الأوروبية فى القرن التاسع عشر وفى بداية القرن العشرين خصوصاً قبل الحرب العالمية الأولى .

والصلة بين هذين الجانبين واضحة ، فحينما تفقد حياة ما أو مجتمع ما مبرراته لابد أن يقوم بعمليات تعويض : يستبدل مبررات قديمة أو تقادمت أو فقدت تأثيرها فى الحياة الأجتماعية كداوفع قوية للحياة الفكرية والعلمية والعسكرية والأقتصادية ، يعوضها بمبررات جديدة .

فإذا لم تأت عملية التعويض كما ينتظر منها بالمبررات الجديدة فماذا يحدث عندئذ ؟

تحدث الأزمة الخطيرة التى يعيشها العالم المتحضر اليوم .

فالعالم المتحضر اليوم يبدو أنه قد فشل فى عملية التعويض ، سواء من الجانب الأدبى كمحاولة الوجودية مثلا ، أو من الجانب السياسى كمحاولة الرجوع لأصله الأوربى بحثاً عن منطلقات جديدة لأفكاره ولنشاطاته الأقتصادية ، فكأنما تقطعت أنفاسه ولم تعد فى متناوله تلك الأشياء المتينة التى كان يرتكز عليها فى القرن الماضى وبداية هذا القرن .

وعندها فإن من الطبيعى أن من لا يجد سندا فى مسيرته التاريخية أن يقع فى حيرة وتيه وقلق . وهذا ما يفسر لنا ما نراه اليوم من حيرة قائمة فعلا فى العقول والنفوس والأرواح . فإذا ما أجتمعت هذه الأشياء فعلا فى نفس بشرية فعندها يمكن أن نتصور ما تولده من دوافع سلبية . فإذا ما فقد مجتمع ما مبرراته ولم يستطع تعويضها بالطرق المشروعة فى محاولات مبذولة ، عندها يعتريه القلق ويعتريه التيه وتعتريه الحيرة .. **فماذا يترتب على هذا من تصرفات ؟**

يترتب عليها التصرفات التى نراها فى أوروبة وأمريكا اليوم .

يترتب على هذا مثلا : أن نجد البلد الذى حقق الضمانات الاجتماعية إلى أقصى حد مثل السويد يتميز بشىء خطير وهو أنه يتصدر رأس القائمة فى (إحصائية الأنتحار العالمية) . فظاهرة الأنتحار فى العالم يشغل فيها المكان الأول البلد الأكثر تقدماً نسبياً من حيث الضمانات الاجتماعية .

وهذا أن عنى شيئاً فإنما يعنى أن البطون إذا امتلأت لا تغنى النفوس ولا تشبعها .

إذا شبعت البطون قد تبقى الأرواح متعطشة ، تبقى الأرواح

متطلعة . وحين لا تجد وجهة تتطلع إليها تفضل هذه الاستقالة من الحياة . هذا إذا ما يحدث ، وقد يحدث فى بلاد أخرى أكثر من هذا فى صورة ما ، ويبدو أن هناك صوراً أخرى للاستقالة من الحياة هى فى الحقيقة أشنع من الناحية الأخلاقية ، ولا أقول من الناحية الدينية . فهى أشنع لأن كل صور خيبة الأمل تتجلى فيها ، مع شيء من العجز حتى عن القيام بهذه المحاولة لإعدام النفس . وذلك أن هذه المحاولة تتطلب شيئاً من الشجاعة . ولأن الإنسان فقد مروءته إلى درجة الفشل حتى فى التخلص من الحياة بالطرق غير المشروعة فإنه يفر منها عن طريق الموبقات ، عن طريق التدهور الأخلاقى ، عن طريق الإدمان على المخدرات ، بحيث يصبح المجتمع مهدداً بالخراب لأن قاعدته الاجتماعية تنهار أى شبابه ينهار .

إن بعض الإحصائيات الأخيرة التى وقعت بين يدى عن إدمان المخدرات فى محافظة باريس ، والتى نشرتها مصلحة الأمن فى هذه المحافظة فى تقرير رسمى صادر عن مجلة تصدرها تلك المصلحة ، تفيد أن نسبة المدمنين بين الشباب للمخدرات تضاعف بنسبة عشرين فى المئة فى السنتين الأخيرتين ، فبإمكانكم إذن أن تتصوروا ماذا سيكون معدل أرتفاع النسبة خلال السنوات العشر المقبلة . ويمكن أن جرت المسائل كما تجرى الآن أن يعم الأدمان الشباب كله فى باريس ، وأظن أن الأمور تجرى على نفس الوتيرة فى سائر أنحاء فرنسا .

يبدو أن الشباب الفرنسى سوف ينهار ، وسوف يحاول الانفلات من حياة فقدت مبرراتها ، عن طريق المخدرات . إن دل هذا على شيء فهو يدل على أن المجتمع يفقد الآن قاعدته الأجتماعية المتينة وهى شبابه ، يضيعه إما فى المتاهات ، أو فى الخمارات ، أو فى المخدرات ،

أو فى المقابر ــ عندما ينتحر .

وهذا يدعونا بالطبع إلى أن نحلل هذه الأشياء ، **ماذا تعنى هذه الأشياء** ؟ ماذا تعنى هذه اللوحة القاتمة التى قدمناها بخطوط سريعة، بعبارات فجة ملتقطة يميناً وشمالاً ؟

إذا مضينا قليلاً فى تحليل الأزمة خصوصاً فى أمريكا يبدو لنا أن المجتمع الأمريكى يعانى ظاهرة تضخم من ناحية وتناقص من ناحية أخرى **تضخم الإمكان الحضارى وتضاؤل الإرادة الحضارية** أى تناقض بين الإرادة الحضارية والامكان الحضارى .

إذا أردنا توضيحاً أكثر ، نقول : إن الهوة أصبحت تتسع بين الواقع الطبيعى الإنسانى الذى ورثه وورث مبرراته التقليدية وواقعه الثقافى اليوم .

فالهوة بدأت تتسع والإنسان أصبح يتمزق ــ خصوصاً الشباب ــ بين **فكرة** لا يستطيع التخلص منها تماماً لأنها مسجلة فى طينته البشرية ، تلك الطينة التى كرمها الله وبين **واقع** ثقافى لا يقدم له مبررات ولا يعطيه بديلا عن مبرراته التقليدية المفقودة .

هذه هى الصورة التى نستطيع تقديمها فى خطوط عريضة ، عن الحياة فى المجتمع المتحضر وعلى محور (واشنطن ــ موسكو) . **وإذا تساءلنا الآن هل ظاهرة التدهور ، والانحلال .. هذه فاقدة المعنى بالنسبة للمؤرخ الذى يريد أن يفيد حتى من التجارب الشاذة المؤلمة ؟** .

نستطيع أن نقدم افتراضاً ، احتمالياً ، فنقول لعل الله يريد شيئاً من

وراء هذا كله . كأنما هذا استدراج ، تسوق الأقدار فيه هذا المجتمع المتحضر إلى طريق حيث تنتهى فيه أخطاؤه **ليفسح مجالاً لتجربة أخرى** بعد فشل التجارب السابقة ، ونحن نرى **فعلاً** أن التجارب الأساسية فى التاريخ لن تبدأ حتى تفشل قبلها كل التجارب السابقة التى فقدت أسسها التاريخية .

يجب أن ينتهى التاريخ فى نقطة ما كى يتجدد التاريخ من نقطة جديدة .

يجب أن يكون هذا مفهوماً وخاصة لدى الشباب ، يجب أن يفشل التاريخ ، يجب أن يفلس التاريخ . **واحياناً يجب أن نعلن الإفلاس كى نشعر الناس وخصوصاً الشباب بأن هذا الإفلاس هو طريق البداية** . فلعل هذا الذى نراه على ذلك المحور استدراج لشىء ربما تعبر الآية الكريمة : « **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله** » . (الصف ٩) ربما هذا هو القطب الذى يتجه إليه مجرى التاريخ فى هذا الثلث الأخير من القرن العشرين . وعلينا أن نتأكد بقدر إمكاننا من هذا وليس لنا أن نقرر ونبت فى شىء قبل انقضائه ، فلكم أنتم أيها الشباب بعد ثلاثين سنة أن تروا الحقيقة سافرة كما هى . أما نحن فى جيلنا هذا فلا نرى إلا توقعات ، ونحاول أن نرى من خلال هذه التوقعات جانباً من مصير الإنسانية .

يجب علينا أن نقوم بعمليتين : أن نرسم خريطة ، الخريطة (الأيديولوجية) كما يقولون اليوم أو خريطة الأديان كما نقول نحن ، فى العصر الذى تنزلت فيه هذه الآية وهذه الآية فيما أظن آية مكية

أعنى فى البداية ، أعنى فى نقطة الصفر .

لو كان لنا أن نرسم الخريطة فعلا فى وقت تنزلها ــ تنزيل لآية ــ لوضعنا على الخريطة نقطة من لون معين يعبر عن رقعة الإسلام فى العالم وهى مكة ، فنلونها بلون ما . هذا اللون الإسلامى ألا يعدو أن يكون نقطة فى الكون ...

بينما تتنزل هذه الآية كأنها تحد لهذا الواقع ، كأنها تحد لا يتصوره العقل بحيث لو كنا نحن معشر عباد القرن العشرين ، بعقلانيتنا وعلميتنا نعيش فى وقت التنزيل لقلنا هذه خرافة . ما هى هذه الخرافة ؟ **إن هذه الآية تتحدى .. ؟!!** تتحدى الأمبراطوريتين والحضارتين القديمتين الكبيرتين امبراطورية وحضارة فارس من ناحية ، وامبراطورية وحضارة بيزنطة والبحر الأبيض على العموم من ناحية أخرى ، فهذا التحدى هو من أقسى معجزات القرآن فى الحقيقة . وذلك عندما نتصوره فى وقت التنزيل ، لأننا إذا رسمنا الخريطة الأيديولوجية آنذاك فماذا نجد عليها ؟

أننا نجد عليها لون المجوسية أو لون الديانة الفارسية ، ولون البوذية ، ولون البرهمية أو لون الهندوكية كما يقولون ولون المسيحية ، ولون اليهودية ، ... ونقطة مغمورة فى الكون هى مكة نقطة الإسلام .

فلو أردنا ونحن فى ذؤابة القرن العشرين (الثلث الأخير منه) رسم خريطة جديدة للأديان اليوم ، فى عام ١٩٧٢ فماذا نجد ؟

نجد أن البوذية قد شطب عليها قلم السيد ماوتسى تونغ ، فمحاها من الوجود . أما **المجوسية** فقد محاها عمر يوم القادسية ــ أما **البرهمية**

فقد محتها ظروفها الخاصة كدين لا كثقافة ، فهى كتراث ثقافى ستبقى إلى أجل لا ندرى مداه ــ نتجنب التكهنات ــ أما كدين فقد أنتهت وأنتهى دورها ، لقد فشلت فى أبسط مهماتها خاصة بعد استقلال الهند ، فقد سجلت الهند فى السطور الأولى من دستورها عام ١٩٤٨ أنها سوف تقضى على حالة المنبوذ ، وكان من سجل هذا إنما سجله تحت إملاء الروح الكبير كما يقولون أى مهاتما غاندى وقد سجل هذا البند فى أحسن ظروف تطبيقه بعدَ الخلاص من محنة الأستعمار ، وبعد فرج الأستقلال وفرحة الأستقلال .

واليوم إذا راجع الهندوكى أو راجعنا نحن القضية بعد عشرين سنة نراها قد فشلت فشلا ذريعاً . وهى قضية لا تتصل بمصير عشرة آلاف مثلاً بل تتصل بمصير ثمانين مليوناً من البشر تقريباً وهذا ليس بالشيء الهين . لقد فشلت لأنها لم تستطع حل المشكلات الأجتماعية . وهذا يعنى كأنما قد قدمت استقالتها من التاريخ .

أما المسيحية فقد حدثت لها أيضاً فى الفترة الأخيرة تطورات غريبة عبر عنها ذلك المجمع المسكونى الأخير وقبله مجمع الفاتيكان الثانى . لقد أصبحت تعانى من مشكلات تعبر عن ظروف خطيرة جداً تواجهها المسيحية اليوم . فالمبررات المسيحية بدأت فعلاً تفقد تأثيرها فى الحياة المسيحية ، فقد بدأ بعض القسيسين ــ رغم تأديتهم يمين الدخول فى سلك الرهبنة : يمين أنهم يعيشون من أجل الله وأنهم لا يتزوجون ويلتزمون بجميع شروط الرهبانية ، بدأوا بعد هذا اليمين المقدس ــ على شروطهم ــ يصرحون فى الصحافة وفى مؤتمرات صحفية كبرى تدور أحياناً أمام عدسة المصور ، ويعلنون أنهم ألقوا المسوح وتخلصوا من أعبائه وأنهم تزوجوا .

ونرى المعركة تدور فى مستوى أعلى على مستوى الكردينالات فى الفاتيكان فيقدم كردينال هولندى استقالته ، (الكردينال سانس) ، من المجمع المسكونى مساندة للقساوسة من الشباب الذى تمردوا على المسوح وشروط لباسه ثم احتجاجاً على سياسة الفاتيكان الاجتماعية .

ما معنى هذا بالنسبة إلينا نحن الذين نحلل هذه الظروف .. ؟

معناه أن المسيحية بدأت فعلاً تفقد المبررات التى يجب تقديمها للشباب القسيسين وللمرأة على حد سواء .

ولقد حدث الذى كان لابد من أن يحدث على أثر فقدان المبررات . حدث أن بدأت دور التعليم العالى المسيحى فى العالم خاصة فى أمريكا اللاتينية تغلق أبوابها الواحدة بعد الأخرى ، ثم تبعتها الأديرة . ذلك لأن فتيات المجتمع الإيطالى قد أنصرفن لمجالات أخرى فى النشاط الأخلاقى غير تلك التى تشرف عليها الهيئات الكهنوتية . وهكذا رأينا من سنتين حادثة ربما بلغكم صداها : أن أحد الأديرة ذو التاريخ العريق الممتد إلى ستة أو سبعة قرون ــ كانت أبوابه خلالها مفتوحة دائماً ــ أصبح مهدداً بالأغلاق ، لأنه فقد البنات المتطوعات لسلك الرهبنة ولبس المسوح ، بحيث أن القس المشرف على أدارة هذا الدير رأى نفسه مضطراً أن يقوم بعملية أخذت أبعاد الفضيحة وذلك حينما اكتشفتها صحيفة إنكليزية . لقد ذهب هذا القس لتفادى الوضع فى ديره ــ ونحن نعلم كم كان له من عطف وحنان على حياة هذا الدير ــ إلى الهند وإلى منطقة فقيرة (منطقة كارالا) فاشترى منها عدداً من البنات بالعملة الصعبة كى يعلمهن أرتداء لباس المسوح والقيام ببعض الطقوس البسيطة وذلك لمدة

شهرين قبل أن يزج بهن فى الدير .. كل هذا كى يبقى الدير ...

ولكن صحيفة إنجليزية قد أفشت هذا السر للأسف ثم تناولته الصحافة العالمية فأصبح فضيحة ، وأصبح الفاتيكان يحاول التغطية بقدر الأمكان — لأنها فعلا فضيحة — .

فإذا رجعنا إذاً إلى الخريطة المرسومة أمامنا نجد أن اللون المسيحى أيضاً يعانى ما يعانى ، فهو كأنما بهت أو شحب .

ونرى على الخريطة شيئاً غريباً : **أن اللون الإسلامى ولونا آخر جديداً — هو لون ديانة جديدة — يكتسحان العالم** . فاللون الإسلامى اليوم يغطى مساحة من الدنيا تعادل نصفها تقريباً (مساحته الأفريقية والآسيوية تقدر بنصف الدنيا تقريباً) ، وعدته البشرية تبلغ (٨٠٠ مليون) — حصّلنا هذا الرقم من إحصائية أخيرة تحت إشراف الأمم المتحدة — ولكى نعطى هذا العدد الأعتبار الصحيح يجب أن تكون لدينا فكرة عن نموه فى عدد من السنين . أننى حينما قرأت لأول مرة ما يسمى بالجغرافيا البشرية وأنا أبن ١٢ أو ١٣ سنة كان توزيع أتباع الأديان كما يلى : للمسيحية فيما أظن (٦٠٠ مليون) وللبوذية (٥٠٠ مليون) وللبرهمية (٤٠٠ مليون) وللإسلام (٢٥٠ مليون) — وفى أوائل الحرب العالمية الأولى كان هذا كل عدد المسلمين فى العالم ، أى أن عدة العالم الإسلامى البشرية كانت (٢٥٠ مليون) . فها نحن فى مدى نصف قرن مثلا نرى أن العدد قد تصاعد إلى ما يقرب الآن من المليار .

إذا نحن نرى طرفين فى القضية وعلى خطين متوازيين : نرى أن سير التاريخ كأنما يستدرج العالم إلى فشل تجاربه وخيبة أمله فى تجاربه العلمية والتكنولوجية الخ .. من ناحية ، ومن ناحية أخرى نمو

الإسلامي كما وكيفا . كما من حيث ازدياد السكان وكيفا باكتساب تجارب جديدة ولو كانت سلبية .

ونرى في الخط الموازى كأنما الله يهيىء القاعدة التاريخية الأجتماعية لتحقيق الآية الكريمة « **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** » (الصف ٩)

فنحن نرى أن القضية تسير في اتجاه هذا القطب ، **إذ يبدو أن من يسير على الخط الحضارى كأنه يُستدرج بأخطائه وباكتشافاته العلمية لتتهيأ لمن يسير على الخط الموازى ظروف ظهوره على مسرح التاريخ .**

سبق أن أشرنا إلى اللون الجديد الذى ظهر على الخريطة سنة ١٩١٧ وهو لون أحمر لون **الشيوعية** وهى أيضاً دين وأنا أتحدث عنها هنا على هذا الأساس . فأنا لا أتناول الشيوعية هنا كمذهب سياسى أو كمذهب اقتصادى . وإنما أتناولها في حديثى هذا على أنها عقيدة ودين تقدم هى الأخرى مبرراتها ، **وهى في الطريق إحدى عمليات التعويض في العالم المتحضر للمبررات التى فقدها** . فإذا فشلت محاولة الوجودية كما فشلت محاولة التعويض السياسى لتنظيم وبناء جديد لحياة أوروبية متحضرة بعد تصفية الأستعمار فيجب أن نضيف إلى هذا **أن عمليات التعويض التى نجحت إنما نجحت على حساب المبررات الأساسية التقليدية التاريخية أى على حساب المسيحية .** فالشيوعية ظهرت كنتيجة لعملية تعويض لمبررات مفقودة .

يتبين إذاً أن خطى السير والأحداث التى تجرى عليهما كأنما تقود مصير الإنسانية نحو قطب يتحقق فيه معنى الآية التى ذكرناها « **هو**

الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » (الصف ٩) .

إن هذا هو ما يجعلنا نعيد النظر فى موقف المسلم فى هذا الثلث الأخير ، **إذ الآن يبدأ دور المسلم أمام هذه الظاهرة** حتى لكأنما أراد الله عز وجل تعطيل وتأجيل دور المسلم فى هذا القرن حتى تنتهى كل تجارب الآخرين بالفشل ويستطيع إصلاح أخطائهم ، أو حتى تصل تجاربه إلى نهاية فشلها فتكون له الخبرة لتدارك أخطائه .

ولكن كيف يتحدد هذا الدور ؟

يتحدد طبعاً طبقاً لهذه الظاهرة التى نرى جانبيها ، جانبها الذى يتحقق على محور (واشنطن ــ موسكو) والجانب الآخر الذى يتحقق على محور ما سميناه محور (طنجه ــ جاكرتا) والذى نسميه الآن محور الإسلام .

فكيف نتصور دور المسلم : ؟

يجب أن يفكر المسلم كيف يسير فى اتجاه التاريخ . كيف يستغل الظروف السانحة التى تتهيأ له على المحورين : المحور الذى فقد المبررات التقليدية والذى ينتظر مبررات جديدة . والمحور الذى أشار الله إليه عز وجل فى الآية الكريمة « **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** » (الصف ٩) .

كيف نتصور إذا دور المسلم ؟

نتصوره طبقاً لضروريات داخلية وضرورات خارجية ، ضرورات **إنشاء وتشييد فى الداخل وضروروات إتصال وإشعاع فى الخارج**

ولو ألقينا سؤالا الآن فلا شك فى أننا سنتفق على الجواب . فعندما نتساءل كيف يقوم المسلم بدوره فى إتجاه تحقيق معنى الآية الكريمة ، التى أوردناها نجيب آلياً : إن على المسلم أن يبلغ الإسلام . دون أن نحدد فى إجابتنا **شروط هذا التبليغ** ، وهذا هو المنطق السهل الذى يغرر بنا ، إن الجواب صحيح **شكلياً** ولكننا بكل أسف نقف عند الجواب ولا نرى مقتضياته الواقعية .

سأعطيكم صورة رمزية نطبقها بعد ذلك : هل ترون إلى أرض عطشى تنتظر الرى من الماء هل نستطيع ريها بماء يجرى تحت مستواها ؟ أن الإجابة ستكون بالطبع : لا ـــ بإستثناء المجنون أو صاحب الشطحات الصوفية إذ يعتقد أن الماء سوف يطلع إليها فيسقيها ـــ . لا لن يسقى الماء الأرض بالصعود إليها وإنما بالإنحدار وذلك بحكم السنن الإلهية عن طريق الجاذبية . سنة الله تقضى أن ينحدر إلى هذه الأرض إذا كان مستواه يخوله ذلك .

إذن إذا أراد المسلم أن يقوم بدور الرى بالنسبة للشعوب المتحضرة والمجتمع المتحضر وأراد ـــ بعبارة أوضح ـــ أن يقدم المبررات الجديدة التى تنتظرها تلك الأرواح التى تتألم لفراغها وحيرتها وتيهها ، إذا أراد المسلم ذلك **فليرفع مستواه** بحيث يستطيع فعلا القيام بهذا الدور . إذ بمقدار ما يرتفع إلى مستوى الحضارة بمقدار ما يصبح قادراً على تعميم ذلك الفضل الذى أعطاه الله له (أعنى دينه) . **إذ عندها فقط** يصبح قادراً أيضاً على بلوغ قمم الحقيقة الإسلامية واكتشاف قيم الفضيلة الإسلامية ومن ثّم ينزل إلى هضاب الحضارة المتعطشة فيرويها بالحقيقة الإسلامية وبالهدى وبذلك يضيف إليها بعداً جديداً . لأن الحضارة العلمانية ، حضارة الصّاروخ ،

حضارة الإلكترون أكتسبت هذه الأشياء وضيعت بعداً آخر تشعر بفقدانه وهو بعد السماء .

إن أوروبا حققت المعجزات فى عالم الإكتشافات وعالم العلوم .. ولكنها فقدت فى أعماق نفسها البعد الذى كان يروح عليها ويرفه عنها ويسندها فى وقت المحن لأنه يربطها بوجود الله .

إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ فى النفوس المتعطشة ، النفوس المنتظرة للمبررات الجديدة .. فيجب أولاً أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كى يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود ، إلى ربانية الوجود ، ولا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله ، والمسلم إذا أتى بهذا لا بلسانه ولا بشطحاته الصوفية .. وإنما كأنسان معاصر للناس ، شاهد عليهم بالتقى والورع **بنزاهة الشاهد الصادق ، الصادق الخبير ، الواعى لقيمة شهادته** .. إذا أتى المسلم هكذا فى صورة الإنسان المتحضر الذى اكتملت حضارته بالبعد الذى يضيفه الإسلام إلى الحضارة (وهو بعد السماء) ، عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة . أى أن الوجود الذى فقد القداسة فى القرنين الأخيرين خصوصاً فى هذا القرن تعود إليه قداسته لأن القداسة من الله ومن الله وحده ولا شىء يعطى القداسة لهذا الوجود غير الله .

والسلام عليكم



الكلمة الطيبة صدقة

